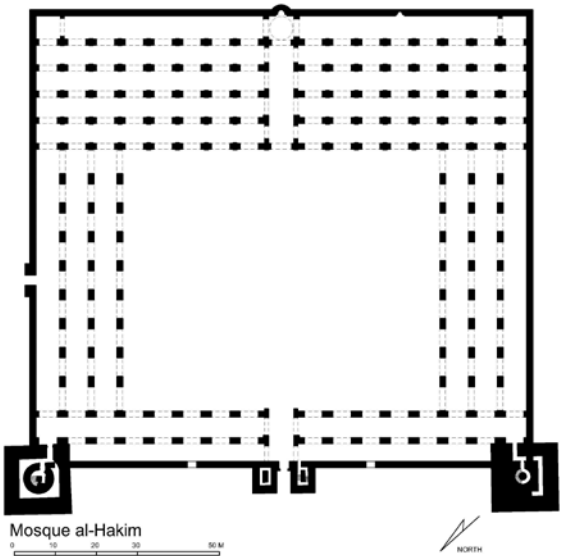
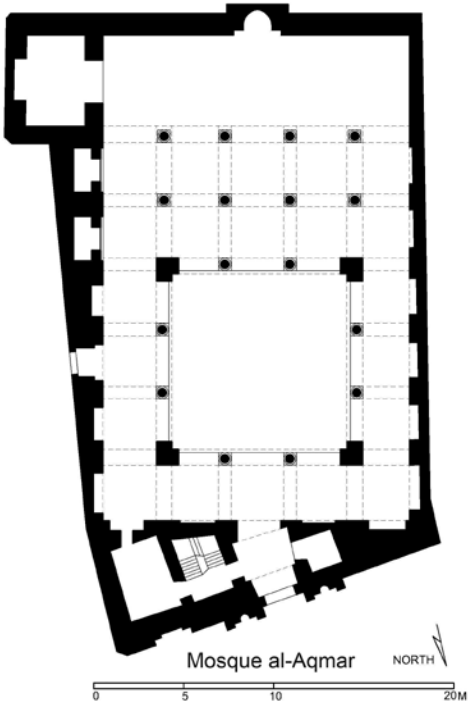


إلى اكتشاف تراثنا

أجمل مساجد القاهرة (1)



النص ل: د. جيهان زكى



العلماء اكتشافاتنا

أحمد
مساجد القاهرة
(١)



جامعة أحمد بن طولون

أولادى الأعزاء .. ”من ذاق عرف“ هكذا قال الحكماء فى مصرنا الحبيبة فتعالوا اليوم أصطحبكم فى جولة حرة فى قلب القاهرة نتذوق معاً حلاوة الماضى ونقف أمام مواطن الجمال التى طالما تأملها أقرانكم منذ أكثر من ١٠٠٠ عام.



تعالوا نغذى أرواحنا ونملأء أعيننا بهذه الإبداعات ونتذكر بأن ”اللى فات مامتش“ بل وأنه باق وبقاق... ونؤكد على أن ”اللى فات تاريخه وقديمه، فرطت منه أيامه وسنينه“! هيا بنا نجلس تحت شجرة الجميز، نتعم بظلمها ونتسم رحيق ثمارها ونتذكر معاً حكاية من حكايات تاريخنا الطويل: حكاية الشاب أحمد بن طولون.



أسس أحمد بن طولون عاصمة جديدة لدولته التى عرفها التاريخ بإسمه أى ”الدولة الطولونية“ وكان أول ما قام به، هو إستبدال العاصمة القديمة الفسطاط بمدينة جديدة تقع بين

الفسطاط وجبل المقطم وأسمها القطائع وكان ذلك عام ٨٦٨ م.

وبعد أن بنى قصره فى المدينة الجديدة، قرر أن يبنى جامعاً فريداً من نوعه أسوة بجامع سامراء بالعراق أى جامع مهيب لا تأتى عليه النيران أو تهدمه مياه الفيضان، فإن احترقت مصر بَقِي، وإن غرقت بقي...

فراحت المدينة الجديدة تتألق وأخذ المعمارىون يبدعون أفكاراً جديدة للمبانى والشوارع والأسبلة والمدارس كما تجلت إبداعاتهم فى تفاصيل قصر الأمير أحمد بن طولون ومسجده الذى



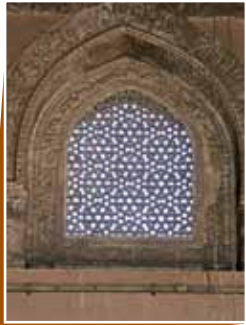


ظلت كثير من تفاصيله باقيه حتى اليوم. ليصبح أقدم وأكثر الجوامع أصالة واحتفاظاً بمكانته فى تلك المدينة التى إندثرت بأكملها.

ولكن قبل أن ندخل الجامع نفسه يا أولاد، دعونا نتأمل السور الذى يحيط بالجامع والذى

يتميز بالزخارف الهندسية والتركيبات الزخرفية البديعة... ما أروعهم! تبلغ مساحة الجامع ستة أفدنة ونصف (طول الجامع ١٢٨ متراً، وعرضه ١١٨ متراً تقريباً).

هيا بنا الآن ندخل الفناء المربع للجامع والذى تحفه الأروقه بجوانبه الأربعة. أحدهم، جناح القبلة الذى يتوسطه المحراب الكبير الذى لم يبقى من معالمه الأصلية سوى تجويفة والأعمدة الرخامية، كما توجد بأعلى الجزء الواقع أمام المحراب قبة صغيرة من الخشب، تحيطها شباييك جصية مفرغة مشغولة بالزجاج الملون. وإلى جانب المحراب يوجد منبر مصنوع من الخشب المزخرف ويعتبر هذا المنبر من أقدم المنابر فى مصر.



تأملوا يا أولادى جمال الرسومات والنقوش التى يتفرد بها جامع أحمد بن طولون حيث أنها تعتبر أقدم وأغنى الوحدات الزخرفية من هذا الطراز فى

مصر والتى تذكر بالعلاقة التأثيرية بين الفن والعمارة على غرار تأثير جامع أحمد بن طولون بجامع سامراء بالعراق.

وماذا عن هذه النوافذ المتكررة؟ تعجب بيتر وهو يشاور على صف طويل من نوافذ الجامع... وجاء الرد على الفور من الأستاذ مصطفى مفتش الآثار: فى الحقيقة يا بيتر أن جامع بن طولون يتميز بـ ١٢٨ نافذة من الجص المزخرف بأشكال هندسية وموتيفات مستوحاه من الزهور والنباتات تذكرنا بجامع دمشق الكبير الذى شيد فى ٧١٤ م.



واستطرد مصطفى: هناك أربعة من هذه النوافذ ترجع إلى العصر الطولونى، أعنى أنها أصلية ولم تتأثر بعوامل الزمن إذ أن حلقاتها الزخرفية كانت بمثابة دعائم منعتها من التصدع والانهييار،



أما باقى النوافذ، فهى من العصر الفاطمى ثم المملوكى أى أقيمت فى وقت لاحق.

أنتم يا أولاد محظوظون برؤية هذه المجموعة النادرة من النوافذ والتي تعتبر كل على حدى عمل فنى

بذاته. ما أروعها! دعونا الآن نتجه سوياً لزيارة ما يعرف بالـ ”زيادة“ . ضحك كريم وقال ”زيادة“ دى كلمة عربي؟ صح يا أستاذ مصطفى؟ فى الحقيقة نعم! ”زيادة“ كلمة عربية تعنى هنا الإضافة أى أن المناطق الشمالية والغربية والجنوبية التى تم إضافتهم للجامع واللاتى تقع بين الحائط الأصى للجامع بن طولون والتوسيعات التى تلتها ونستطيع أن نرى نفس الهيكله بإضافاتها فى مسجد سامراء بالعراق وكذلك المسجد الكبير بسوسة فى تونس. وما هذه المثدنة الغربية يا أستاذ؟ هى مثدنة فريدة من نوعها فى العالم، وذلك لسببين يا أولاد: الأول يرجع لأنها بنيت خارج الجامع وليس بمتنه الأساسى والثانى هو أنها محاطة بدرج حلزونى ينتهى أعلى المثدنة، ويقال أن هذه الفكرة قد إستوحت من مثدنة جامع سامراء بالعراق. وفى سنة ١٢٩٦ م أتى أحد سلاطين مصر من المماليك اسمه السلطان لاجين وقام بترميم المثدنة وبالرغم من أنه أضاف مبخرة فوقها إلا أنه حافظ على شكلها الأصى.

وفى القرن الثامن الهجرى، استخدم هذا الجامع كمصنع للجلود ثم بعد ذلك كملجأ للعجزة، ثم أتت لجنة حفظ الأثار العربية سنة ١٨٨٢م وأخذت فى إصلاحه وترميمه، إلى ان أمر الملك فؤاد الاول سنة ١٩١٨م بإعداد مشروع لإصلاحه إصلاحاً شاملاً.

جامع الحاكم بأمر الله

”الحاكم بأمر الله“ اسم له وقع خاص فى وجدان وضمير المصريين. يمكن أن نسمع فى مختلف أرجاء مصر المحروسة تعليق، هو فإكر نفسه الحاكم بأمر الله، من سيدة لزوجها أو أحياناً أخرى من مرؤوس إلى مديره كناية عن الديكتاتورية... إشرح لنا ليه يا أستاذ مصطفى هو كان فرعون؟

لا يا أولاد، لم يكن الحاكم بأمر الله فرعون، دعونى أحكى لكم قصة هذا الشاب الذى ذاع صيته لهذا الحد.





فى الحقيفة، ولد
الحاكم بأمر الله فى القاهرة
فى رحاب العائلة المالكة
الفاطمية الحاكمة حينذاك
لمصر والمعروفة بالدولة
الفاطمية، ومنذ حوالى
١٠٠٠ عام، خلف الحاكم
بأمر الله والده فى حكم

البلاد واستمر فى أداء مهامه لمدة ٢٥ عام حتى اليوم الذى خرج فيه على ظهر
حصانه فى أحد جولاته على جبل المقطم والتى لم يعد منها أبداً.

ولكن يا أولاد، دعونى أقول لكم أن هذا الشاب الذى ترك بصمة فى سجلات
التاريخ المصرى بل والتاريخ العربى، كان يتسم بغرابة الأطوار وتطرف المزاج
لدرجة أنه أعلن نفسه فى صباح يوم من الأيام أنه أحد التجليات الإلهية على
الأرض دون عن كل ممن حكموا مصر سابقاً.



فمن بين تصرفاته الغريبة التى إقترنت
بشخصيته المتطرفة هى منعه أكل الملوخية
للشعب المصرى علماً بأنه كان الطبق
المفضل إليهم، وأيضاً قام بمنع بيع أكثر
من خمس وقات من الكروم، العنب،
و ٣ لترات من العسل. وبجانب ذلك،
فرض الحاكم بأمر الله حظر تجوال
على شعبه بعد صلاة العشاء وعاقب من
خالف ذلك الأمر بالقتل مباشرة!

وصاح جون: كان للحاكم بأمر الله جامع أيضاً مثل بن طولون، هل إعتنى هو
الأخر ببنائه وعمارته؟ رد مصطفى وقال: لا أبداً! الوضع هنا مختلف لأن
هذا الجامع قد بدأ العمل فيه عام ٩٩٠ تحت خلافة العزيز بالله

ابن الخليفة الشهير المعز لدين
الله الفاطمى وكان مهمة الخليفة
الحاكم، فقط إكماله وإفتتاحه أمام
العامة. منذ ذلك الوقت، أى منذ
حوالى ١٠٠٠ عام، وقد ظل الجامع
محتفظاً باسم جامع الحاكم ويعد ثانياً
أكبر مسجد فاطمى فى مصر.



ومن خلف مجموعة الأولاد، أخذ
مصطفى الخبير الأثرى يرفع صوته
على خلفية ضوضاء شارع المعز



كى يضيف قائلاً: فى الأصل، كان جامع الحاكم يقبع خارج المدينة الفاطمية حتى شيد بدر الدين الجمالى سوراً لها فشمّل حينئذ الجامع ليصبح آخر جامع نجده بعد مدخل باب الفتوح.

وتعالت أصوات بيتر وزملاءه عند دخولهم من الباب المؤدى إلى قفء الجامع: الناس دول كانوا طوال جداً ...

كل ده باب! فرد مصطفى قائلاً: لا يا بيتر، هذا الباب كان بهذا الحجم كى يبهر من يدخل منه إلى الجامع ثم إستطرد قائلاً: عمارة جامع الحاكم تتميز بالبساطة فهى مستطيلة الشكل يتوسطها قفء يحيط بها أروقة تحملها أعمدة. بالنسبة لرواق القبلة، فقد شهد تطورات تاريخية عديدة، فقد إتخذ لوسع مساحته كسجن لأسرى الصليبيين، أثناء الحملة الفرنسية ثم إصطبل فى عصر صلاح الدين، ثم مصنع لنفخ الزجاج، لينتهى بساحة الكرة للمدرسة الإبتدائية التى إتحق بها جمال عبد الناصر فى يوم من الأيام.

المعروف عن جامع الحاكم بأمر الله، أنه إفترن بالحكمة والنصيحة الصائبة لدرجة أنه عرف ببيت الحكمة فمئذ عام ١٠٠٥، أصبح يدرس فى رحابة أيضاً علوم الفلك، وقد فتحت أبواب هذا الجامع للعمامة لتلقى العلم والنهل من المعرفة حتى عرف بكونه مرجعية عربية رفيعة المستوى يفخر أى من الدعاة أنه تتلمذ ولو لفترة من دراسته على أيدي معلمى جامع الحاكم.

وفى النهاية يا أولاد دعونى أقول لكم أن شخصية الحاكم بأمر الله رغم غرابتها وكثرة نوادرها إلا أنها وثقت من كثير ممن سجلوا هذه الفترة على أنها شخصيته تحمل الكثير من الكرم وزهد الحياة فذكروا على سبيل المثال ملابسه المتواضعة وإنتقالاته على ظهر حماره كما وصفوه بطول القامة وعرض البنية وكذلك بعينين ثاقبتين وصوت دافئ ملئ بالرجولة.

جامع الأقم

هيا يا أولاد نتجه إلى قلب الدولة الفاطمية فى شارع المعز لدين الله الفاطمي. توقفوا هنا وأنظروا تجاه هذا الجامع الصغير، تأملوا هذه الواجهة الفريدة لهذا المسجد، تحسسوا أفكار مهندس البناء ولمسات أيدي العمال التى





أتقنت الواجهة. هذه الشموس والنباتات والزخارف التي تزين الواجهة هي أهم ما تميز هذا المسجد، سبع شمس كبيرة تثير الواجهة.

أرفعوا رؤوسكم إلى الأعلى ناحية اليسار تجاه المئذنة الجميلة، رغم أن المئذنة الأصلية اندثرت شأنها شأن أخواتها من مآذن المساجد الفاطمية بسبب عوامل الجو، إلا أن المئذنة التي

شيدها المماليك تعبر أن يد الصانع المصري تبقى أبد الدهر تتحلى بالمهارة والإتقان وبديع الصنع حتى تكاد الحجارة تنطق من فرط روعتها، وتم إقامتها عام ١٢٩٦ في عصر الظاهر برقوق.

ومثلما رأينا يا أبنائي جمال جامع الحاكم، إلا أن هذا يعتبر من أجمل الجوامع في مصر على الإطلاق وخاصة لواجهته ذات الطراز الغربي والتي تعد من أقدم الواجهات الحجرية المزركشة بأنماط مختلفة غنية إبداعياً.



وغالباً يا أولادي الأعراف أن البوابة الكبيرة لجامع الحاكم والتي علق عليها بيتر كانت مستوحاه من تلك الواجهة البديعة التي تقف أمامها الآن فقال بيتر: ازاى

عرفنا حكاية المسجد يا أستاذ؟ فرد الأستاذ مصطفى: من السياح. تعجب بيتر: هوزمان من ١٠٠٠ سنة كان في سياح لزيارة هذه الأماكن؟

فرد مصطفى: أكيد طبعاً كان هناك زيارات من مختلف أنحاء العالم العربي وأيضاً مسارات حج من وإلى القاهرة المعز وأذكر هنا يا أولاد الرحالة ناصر خسرو والذي وثق بدقة وعناية فائقة

تفاصيل رحلاته من خلال مذكرته اليومية.

قام ناصر خسرو بزيارة مصر عام ١٠٤٨ م وتوقف طويلاً أمام الإبداعات المعمارية لهذه الواجهة الحجرية التي تحتوي على كم من التفاصيل المستوحاه من الطبيعة كمحار البحر والأشكال الحلزونية وغيرها.





ومين اللى بنى المسجد يا أستاذ؟
بناه الوزير المأمون عبد الله
الأقمر وزير الخليفة الفاطمي،
وربما جاء اسم الأقمر من
اسم الوزير أو لأن حجارته
البيضاء الجميلة كانت تتلألأ
تحت أضواء القمر فى ليالي
القاهرة الجميلة.

هيا بنا إلى دخل إلى المسجد نستمتع بالجلوس فى ظله، أنظروا إلى صحن
المسجد ليس مربعا تماماً وإنما يشبه المستطيل وتطل عليه من كل جانب بأكثة
من ثلاثة عقود ترتكز كل منها على عمودين منفصلين فى الوسط وعلى دعامتين
مشتركتين فى أركان الصحن.

تأملوا رواق القبلة البديع الكبير، ذو المحراب المصنوع من الرخام الأبيض والذي
يتصدره لوحة رخامية مكتوب عليها بخط كوف بديع.

رغم صغر حجمه إلا أنه يتميز بروعة معماره التاريخية وواجهته المزخرفة و التى
تعد أول زخرفة تستخدم لمسجد فى القاهرة يكون له واجهة مزخرفة من دلايات
ونقوش خطية ونباتية محفورة فى الحجر.

وتؤرخ طريقة بناء المسجد لمرحلة غاية فى الخصوصية فى العمارة الإسلامية
خلال العصر الفاطمي، فهو أول جامع تم تعديل تصميمه ليناسب شارع
النحاسين بالقاهرة الفاطمية، ويشير اسم المسجد إلى الطريقة التى تتلألأ
بها جدرانها تحت ضوء القمر. ويروى المقرئ أن

المسجد بُنى فى مكان إحدى الأديرة التى
كانت تسمى بئر العظمة، لأنها كانت
تحوى عظام بعض شهداء الأقباط،
وسُمى المسجد بهذا الاسم نظراً للون
حجارته البيضاء التى تشبه لون القمر.



© (٢٠١٦) إعداد النص والترجمة للعربية: جيهان زكي (CNRS)
حقوق التصوير: كريستيان لوبلان، إيميل بريس دافين، جي لوكيو.



تم نشر هذا الكتيب الموجه لتلاميذ المدارس بدعم من:
بنك قطر الوطني الأهلي، جمعية الحفاظ على الرامسيوم،
برنتوجراف - أسامة خيري - جمهورية مصر العربية
يوزع مجاناً